من تراب الطريق!

(١٨٣) تلفيقات ومظالم ! (*)

ظاهرة التلفيق ظاهرة قديمة موصولة، من وقت لآخر، ينزاح الستار - وقد لا ينزاح - عن تلفيق اتهام، قد يكون باختلاق الجريمة كما يحدث أحيانا فى دس المخدرات أو الادعاء بما يسمى " الإلقاء " الذى يعقبه تتبع يقال إنه كشف عن تلبس بحيازتها، أو دس السلاح أو نسبته إلى شخص لا علاقة له به إلاّ الادعاء الملفق !

من صور التلفيق ما تدفعه الرغبة فى غسل اليد من الجرائم التى لا تنفتح مغاليقها، فيبرز التلفيق وسيلة لإغلاق التحقيق ونفض اليدين من القضية، بتقديم متهم وتلفيق الأدلة ضده، والأدهى أن يجبر على الاعتراف بجرم لم يرتكبه، وليس بقليل فى تاريخ البشرية إنزال وتنفيذ عقوبة الإعدام ببرىء قبل أن تكشف الأيام عن براءته مما أعدم عليه، أو أن المجنى عليه فى جريمة القتل التى أعدم من أجلها قد ظهر حيّا يرزق لم يمسسه سوء !

حدث ذلك هنا وهناك فى المسكونة الأرضية، لا يكاد يمضى اكتشاف الخطأ والحزن والندم عليه وعلى إزهاق روح بريئة، إلاّ ويسدل ستار النسيان كعادة الناس، ويستمر التلفيق بصور وأشكال مختلفة، لا تقصر فى تستيف الأدلة الكاذبة، ودون أن تتورع أحيانا عن انتزاع اعتراف كاذب يفر به المعترف من وطأة التعذيب والإهانة !

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/٢٩

التلفيق فى مثل هذه الأحوال يظلم بريئا، ويترك المذنب الحقيقى متخفيا بجرمه فائزًا بإفلاته من يد العدالة . إهدار كرامة الإنسان وضربه وتعذيبه وإهانته لإجباره على اعتراف قد يكون بريئا منه .. هذا الإهدار يطيح بكرامة وأمان الناس جميعا لا يقتصر أثره على شخص المعترف كذبًا، وإنما يمس أمان الكل فى أن يشعروا بالطمأنينة من أن تمسهم ملاحقة على شىء لم يرتكبوه ! .. ويمس أمان المجتمع فى إفلات المجرمين الحقيقيين من يد العدالة، مع ما فى إفلاتهم من احتمالات تكرار الجريمة ووقوع ضحايا قلّوا أو كثروا قبل أن تصل السلطات إلى الفاعل الحقيقى !

فلماذا التلفيق والكل يدرك - بمن فيهم الملفق - أن عواقبه وخيمة، وقد تصيب الملفق نفسه بملاحقة وعقاب عن التعذيب الذى يجرمه القانون سواء كان لحمل متهم على الاعتراف، أو توقف عند حد إساءة معاملته ؟!

كثيرًا ما تكون دوافع الإكراه والتعذيب لانتزاع الاعتراف بغض النظر عن صدقه، مرجعه للرغبة فى إبداء القيام بالواجب أو ادعاء الشطارة أو كف إلحاح ولوم الرئاسات على التأخير فى فك طلاسم جريمة سيّما ما يشغل الرأى العام، ولكن المنزلق الأكبر للإقدام على الضغط والتلفيق، راجع إلى نسيج الملفق وتكوينه النفسى والأخلاقى، وإلى قصور إمكانياته وإلمامه بعلوم كشف الجريمة واستقصاء أدلتها بفنون التحقيق وأدواته المشروعة .. وهى تغنى الباحث الساعى لفك طلاسم الجريمة إذا أدرك هذه الأدوات وألمّ بها وهى كثيرا ما تغنيه عن التردى فى التعذيب الذى يصيب كرامة الإنسان ويؤذى العدالة حين يخطىء هدفه .. وقد يؤذى الباحث إذا ما تردّى هو نفسه - وكثيرًا ما يحدث - فى هاوية جرم وهو يلفق بالتزوير أو خلافه، أو بالتعذيب والإيذاء للحمل على الاعتراف !

الأدهى من التلفيق، أن ينطلى أمره على قضاء الحكم فيقضى بمعاقبة برىء، وكثيرًا ما يحدث .. من سبعة أشهر أصدرت أستراليا عفوا عمن يدعى كولين كامبل بعد (٨٦) عامًا من إعدامه على هتك عرض وقتل طفلة.. احتاجت السلطات التى أدانته فى شهر أو شهرين، إلى قرابة قرن

من الزمان قبل أن تكتشف أن الأدلة التى أعدم عليها مغلوطة وكاذبة وملفقة!.. وفى فرنسا مضت سبع سنوات قبل أن تظهر براءة مدام بولين من تهمة قتل زوجها وشقيقها بالسم، ولحسن حظها وحظ العدالة أن العقوبة كانت بالسجن فأمكن تداركها وإن كان بعد سبع سنين!

هناك قد تنشط العدالة لإنصاف مظلوم تعجلت السلطات إدانته بالتلفيق!.. وقد يحدث هذا الإنصاف هنا وهناك أو لا يحدث، ولكن يبقى التلفيق وصمة عار تعصف بالإنسانية وتجلب المظالم وتصادر العدالة نفسها وتنسف أمان الإنسان!